

المنحى العقائدي في شعر المقاومة الجزائرية

د. الطيب بن دحان و أ. جازو فاطمة/ جامعة طاهري محمد بشار

الملخص:

دخل المستعمر أرض الجزائر فوق جسر من دماء الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن . أراد العدو طمس الشخصية الوطنية ، و عزل الشعب عن عروبتة خاصة عندما أدرك أهمية المساجد و الزوايا ، فحنق على العلماء زج بعضهم في الإقامة الجبرية ، و آخرين نفاهم إلى خارج الديار ، و مع ذلك لم يتمكن من حصر دعوة الجهاد ، لأن الشعب آمن بشرعية مقاومته ، لاسيما و أن المساجد غزت كل التراب الوطني باعتراف الخصم ، الأمر الذي دفع العدو إلى تضييف وسائل قمعه ، حيث تفنن في التعذيب و التقتيل ، إلا أن إرادة الشعب كانت أقوى ، لأن المحارب الجزائري آمن بمصييره ، إما جنة الخلود أو العيش في كنف الحرية ، و في كلا الحالتين هو الفائز . بهذه العقيدة شن الشعب حربا شاب الطفل من هولها قبل المشيب ، اقتحم نارها _ فكانت بردا و سلاما _ و خاض غمارها من اجل الدفاع عن الإسلام و المسلمين .

Abstract:

The colonists invaded Algeria, treading the blood tracks of the martyrs who sacrificed their lives for the country. The coloniser wanted to uproot the people's national identity and to strip them of their character of their being Arabs and Moslems, especially when the French knew the importance of mosques and "Zawayas" in the inhabitants 'life. Henceforth, many of the Moslem scholars "Oulama" were either thrown in jails or put in confinements, and others were exiled far from their home country. In spite of this fact, the colonisers did not manage to stifle the call for martyrdom "Jihad" because the people were committed to fight the enemy and made an oath to regain Algeria: "We are resolved that Algeria shall live". This was even through the revelation of the colonists who raised their means to silence the inhabitants by various methods of torture and execution. However, the fighters' will to resist was stronger as the Algerian combatants strongly believed that the outcome of their launched holy wars was either martyrdom or access to eternal paradise or independence and life in freedom. Thus, in both situations, the Algerian fighter was the winner. With this conviction the Algerian freedom fighters made a war where warriors at an early age were taking roles of aged soldiers for the sake of saving their Moslem country and their people.

تمهيد :

عاشت الجزائر تحت وطأة الحكم العثماني حينما من الدهر ، و بحكم الانتماء العقائدي للدولتين ، لم يكن لهذا الحكم تأثير مباشر في الحياة الدينية ، و الثقافية . الأمر الذي سهل وظيفة المساجد و الزوايا ، و المدارس التعليمية في نشر الوعي بين الأوساط الشعبية . أدت الزوايا و المدارس القرآنية دورا بارزا في المحافظة على وحدة الأمة ، حيث قامت الفرق الدينية "الصوقية ، الدرقاوية ، القادرية . " بدعواتها المختلفة في توعية المجتمع ، و حرصه على التمسك بعقيدته الإسلامية ، و مما سهل ذلك

انتشار المساجد في كل أنحاء الوطن ، حيث كان يسهر على نشر العلم و المحافظة على القيم الروحية حسب قدرته و إمكانياته المتوفرة .

من هنا وجد المستعمر الفرنسي صعوبة في طمس شخصية الجزائري ، و بمعرفة الشعب لهذه الحلقات التي كانت تشيع بين جدران المساجد و الزوايا تسقط فكرة المستعمر الذي جاء ليضع الشعب الجزائري فوق سكة التحضر .
لعل تصرفات العدو البشعة مع المكتبات في المساجد و الزوايا خاصة في المدن الكبرى يفند الصورة التي رسمها للجزائر .
هذا الموقف الشعبي ضد الاستعمار جعله يتخذ سبلا أخرى لتنفيذ برنامجه ، لجأ إلى سياسة التمسيح و التجهيل ، إلا أن الأمر لم يمر بسلامة لأنه وجد شعبا مؤمنا بقضيته ، متمسكا بلغته و عقيدته .

الدافع العقائدي :

لم يكتف العدو بما نهبه من خيرات ، ولم تشبعه الجرائم التي اقترفها ، بل طفق يطمس الشخصية العربية ، و ينشر مبادئ الصليب من خلال تهدم المساجد ، و غلق مدارس القرآن ، و قتل و نفي علماء الجزائر ، ليسهل عليه إبادة الشعب الجزائري .

بهذا العمل الإجرامي أصبحت المساجد مهجورة ، خالية من حلقات الدروس و الوعظ ، شاع فيها الظلام و انطفأ في رحابها النور، و الكثير منها كان مصيره الهدم و التخريب ، و قد نقل الأديب أحداثها ، و رصد ما خلفته يد الإجرام من تدمير العقول و في هذا يقول الشاعر الشعبي عبد القادر الوهراني :

حسراه ! على جوامع و على خطباتها

منابر الرخام اللي مرفوعين

حسراه ! على الصوامع وعلى آذانها

و على ادراسها ، ثم الحزين

حسراه ، ! على المساجد غلقت بيابها

ضحوا اليوم يا سيدي منسيين ¹

و إذ يقوم العدو بهذا التصرف ليعم الجهل و يخيم الظلام ، و تحتجب الحقائق ، و يطيب له البقاء ، في ظل هذه التحولات و نتيجة هذا الاعتداء على الاماكن المقدسة للشعب الجزائري كاتب الامير عبد القادر القبائل (من اجل إعلاء كلمة الله ، و تأمين السبل ، و منع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة ، و حماية من العدو ، و اجراء الحق و العدل) ² ، لأن الدين الاسلامي يدعو إلى ذلك :

فنحن لنا دين ، و دنيا تجمعنا و لا فخر ، إلا ما لنا يرفع اللوا . ³

لأن العدو أخوف ما يخافه أن تتنور الرعية ، و تدرك أن الإنسان خلق ليعيش في كنف الحرية ، و هو ما حذر منه الشاعر :

الجهل أشبه بالغراب فماله من منزل غير الخراب البلقع

الجهل غيم فوق أرضك ضارب غطى على أحيائها و الاربع

لن يخرق ابنك حجبه ما لم يكن بمنقب في الكتب أو مستطلع . ⁴

فكان له بها نصر و فتح	و كان له ديوع و اشتهار
"تلمسان" احفظي ذكر ازدهار	مملك فيك كان له ازدهار
ففي هذا الثرى الزاكي قديما	لنا ازدهرت حضارات كبار
و في هذا الثرى الزاكي قديما	تفشى العدل و انتشر اليسار . ⁵

سأنتك حالة أمة مقهورة
تتحيا على ذل بجرح دام
مئن في درك الجهالة و الدين
و البؤس بين ضلالة و ظلام .

فوثبت للتحرير وثبة ماجد
 8. ماضي العزيمة مخلص قوام .

(فلنعزل قدر الإمكان تطور المدارس العربية و الزوايا ... و بكلمة واحدة ، يجب أن نعمل على إحباط الأهلالي ثقافيا و ماديا)⁹.

و نزعم أنا مسلمون و ديننا
و نبغي حياة العز و الجهل دأبنا
نسير وراء الناعقين تمالكا
نرى قولهم حقا و صدقا و حجة

تعيش به الأهواء و الكل ذاهل
و هل نال عزا في البسيطة جاهل
لنحظى ببعض الشيء و الشيء سافل
و إن جاء منهم تافه فهو كامل

لكن الشاعر عز عليه رؤية الشعب ينساق وراء شهوات المستعمر ، فدعاه إلى التمسك بالقيم التي نادى بها الإسلام ن
ليصون كرامته و يوحد صفه ، حتى لا يكون لقمة سائغة في فم الأعداء :

15

و اجعلوا الدين شعارا لكم
و ارفعوا رايته نحو السماء
و لتكونوا كجدار واحد
لبناء المجد ، مثل العظماء

لا تكونوا لقمة سائغة
في فم الظلم ، فدا عين الفناء .¹¹

لكن العدو لا يريد ذلك ، فهو يعمل على أبعاد الشعب عن دينه ، و تشكيكه في عقيدته ، من خلال سياسة التمسح ،
و كان نابليون الثالث (يشجع الكنيسة ، و يعارض تعليم الدين الإسلامي ، و اللغة العربية في الجزائر)¹²، يعمل كل ما
في جهده من أجل القضاء على مقومات الشعب :

حاربت بالجنون أسمى المبادئ
و أهانت مقدس الأجداد
و سعت ضد مالها من تراث
و تعاليم حرة في البلاد .¹³

لكنه مهما يحاول إبعاد الشعب عن تعاليم دينه السامية ، فإن قوة الإيمان خبيت آماله ، و خبلت سداه :

و عن العقيدة زوروا تحريفه
فأبى مع "الإيمان" أن يتزعزعا¹⁴

هذه هي عقيدة شعب تمسك بالقرآن ، و دأب على حفظه ، نقله من السطور إلى السطور فهو غذاءه الروحي :

لا تنبذوا القرآن ، فهو إمامكم
فالخير كل الخير ، في إعظامه
هو روضه للروح فيه حياته
من نوره تمحي دجى أوهامه .¹⁵

خاصة و أن العدو كان يهدف لسياسة الإدماج ، (لم يتوان لحظة في تنفيذ مخططه للقضاء على الشخصية العربية في الجزائر
منذ أن احتلها عسكريا ، فعمل على القضاء على اللغة العربية ن و إحلال الفرنسية محلها ، تمهيدا لإدماج الشعب الجزائري
في الأكثرية الفرنسية ، و ربط مقدراته بفرنسا مباشرة)¹⁶.

تفطن الشاعر لذلك و دعا إلى محاربة الجهل ، و النجاة من آثار مخالفه المؤلمة :

فمزقوا الجهل ، و انجوا من مخالفه
فالجهل ، بالعلم و التفكير ، ينقطع
وحيثما كنتم ولوا وجوهكم
و جهدكم ، شطر شمس العلم ، و اندفعوا .¹⁷

و أخوف ما يخافه الاستعمار أن تنور الرعية ، و تنشأ الأجيال على الصبغة التي يريدها الشعب ، لذا أخذ يشجع على
اللغة الفرنسية ، و الإقبال عليها حتى (يضمن تنشئة أجيال قد صبغوا على أيدي معلمهم بالصبغة التي يريدها الدهاة من
أساتذتهم)¹⁸.

بهذه الطريقة ينسلخ من شخصيته ، و تذوب وطنيته ، فيتحلّى بالمظاهر السلبية ، إن استبدال (لغته بلغة أخرى لزمه
التخلق بأخلاق أهلها ، و استحسان ما هم عليه من العادات ... فيكون أجنبيا بين قومه)¹⁹.

لكن "رمضان حمود" حذر من هذا الدخيل الذي يمزج السم في العسل لأن (التاريخ يحي الامم و قد يكون قاتلها ، إذا
شربته من كأس غيرها)²⁰ ، و ذاك هو مسعى الاستعمار الفرنسي الذي قال عنه المؤرخ "غوتي" : (إن فرنسا حاولت في
الجزائر أن تجعل قطعة من العالم العربي أوروبية)²¹.

17

إن الثبات على العقيدة و الدفاع عنها وقت المحن ، حنق العدو على الشعراء ، زج بعضهم في السجن ، ونفى الآخرين إلى أماكن معزولة ، لكنه لم يستطع إيقاف صوته الصارخ :

ويؤكد أكثر من مؤرخ أنه عندما غزت فرنسا الجزائر عام 1830 كانت نسبة الأمية في فرنسا أعلى منها في الجزائر ، مما يثبت أن الشعب الجزائري كان متمسكا بهويته ، محافظا على لغته ، و بقي كذلك رغم تفنن العدو في ضربه في الصميم ، و لو أن لغة من اللغات أصابها ما أصاب العربية ، لكان مآلها الزوال و الاندثار ، لكن العربية رعاها الله ، و حفظها الشعب في الصدور و السطور :

غير أن الشعب الجزائري خيب له الآمال ، و خبل له السدى من خلال المدارس و الزوايا ، و بفضلهما حفظ الشعب لغة القرآن من الاندثار .

كان الشعر وسيلة نضالية ، و صرخة قوية ، و ضربة قاضية ، بذل الشاعر جهده في نصرة الدين ، فضح العدو ، وشحن النفوس ، و عزف على الوتر الحساس ، اندفع المحارب إلى ساحة الوغى ليفك شعبه من سلاسل الأغلال :

و أقمه بالأخلاق فهي سنده

بمذه العزيمة تمكن الشاعر من مصاحبة الجندي في ساحة الوعى ، و هكذا أيضا تعانق اللسان مع السنان ، و جاءت الكلمة لتؤدي وظيفتها ، وهو ما يثبت أن الأدب يسبق الثورة و قديما قالوا : جراحات السنان لها الثمام و لا يلتام ما جرح اللسان .

لقد أثبت المحارب الجزائري قدرته على محاربة المستعمر نتيجة إيمانه بقضيته ، و عزمه القاطع على الولوج إلى ساحة المعارك دون خوف ، ولا تردد ، لأن ثورته لا تتنافى و القيم الإسلامية ، و هو ما أجبر ديغول يقر بشرعية الثورة الجزائرية ، و جعل الشاعر محمد الشوكي من وراء القضبان "الجرف" يتحدى طغيان العدو :

ولقد آمنت بأن جيوش الظلم في كل أرضنا سوف تقهر

و بالتالي لم يتمكن العدو من إخماد نار الثورة الجزائرية ، و لم يستطع غلق أفواه الشعراء الذين وقفوا في وجهه ، حركوا في الشعب مشاعر العروبة و النخوة الإسلامية ، حرضوا الشباب على اقتحام نار الحرب ، دخلوها بقلوب لا تعرف الخوف و لا الوجل ، عازمين العقد على اخذ تأشيرة الخلود ، ماتوا مائة الأبطال من اجل الوطن ، لا يهمهم على أي جنب يكون مصرعهم .

- 1_ عبد الملك مرتاض ، ادب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830_1962 ج1 المركز الوطني للدراسات الجزائرية 2003 ص 86 .
- 2_ أنظر تحفة الزائر في تاريخ الجزائر شرح و تعليق محمود حقين ج1 دار البقطة العربية للتأليف و الترجمة و النشر 1963 ص 161 .
- 3_ الامير عبد القادر الديوان تحقيق زكريا صيام ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الجزائرية للطباعة ص 101 .
- 4_ محمد الغيد آل خليفة ، الديوان ط3 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 145 .
- 5_ المصدر نفسه ص 80 .
- 6_ الربيع بوشامة ، الديوان منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994 ص 81 .
- 7_ نوري حمودي القيسي ، الفروسية في الشعر الجاهلي ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ط2 سنة 1984 ص 77 .
- 8_ الربيع بوشامة ، م ن ص ن .
- 9_ عمار هلال ، أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ص 110 .
- 10_ صالح خريفي ، رمضان حمود المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 90 .
- 11_ محمد ناصر ، رمضان حمود ، حياته و أثاره ط2 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 185 .
- 12_ أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ج1 دار الغرب الإسلامي بيروت ط3 1990 ص 75 .
- 13_ الربيع ابو شامة ، من ص 201 .
- 14_ مفدي زكريا اللهب المقدس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1983 ص 59 .
- 15_ محمد ناصر ، رمضان حمود حياته و أثاره م س ص 189 .
- 16_ عبد العزيز شرف ، المقاومة في الادب الجزائري المعاصر ط1 سنة 1991 دار الجيل بيروت ص 49 .
- 17_ محمد ناصر ، رمضان حمود حياته و أثاره م ن ص 193 .
- 18_ محمد الكتاني ، الصراع بين القدم و الجديد في الادب العربي الحديث ج2 دار الثقافة الدار البيضاء ط1982 ص 587 .
- 19_ محمود فهمي الحجازي ، اللغة العربية في العصر الحديث قضايا و مشكلات ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة 1998
- 20_ صالح خريفي م س ص 39 .
- 21_ فرحات عباس ، ليل الاستعمار ، دار القصة للنشر الجزائر 2003 ص 14 .
- 22_ عبد المجيد حنون ، صورة الفرنسي في الرواية المغربية ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 32 .
- 23_ حسن عبد الرحمن سلوادي ، عبد الحميد بن باديس مفسرا ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 ص 29 .
- 24_ حسن فتح الباب ، مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية الدار المعربة اللبنانية ط 1 ، 1997 ص 18 .
- 25_ مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 190 .
- 26_ محمد ناصر ، رمضان حمود حياته و اثاره ص 171 .
- 27_ ابو القاسم سعد الله أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، ص 76 .
- 28_ عمار بن زايد ، النقد الأدبي الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص 104 .

- 29_ محمد العيد آل خليفة الديوان ، ص 110 .
- 30_ عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر ، ص 377 .
- 31_ محمد العيد آل خليفة الديوان ، ص 160 .
- 32_ مفدي زكريا اللهب المقدس ، ص 189 .
- 33_ ناهد إبراهيم دسوقي ، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث ، الاسكندرية منشأة المعارف 2001 ص 21 .
- 34_ أحمد سحنون الديوان الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ص 118
- 35_ محمد الشبوكي الديوان ص 20 .